الجامعة المستنصرية/كلية الآداب–قسم التاريخ

محاضرات التاريخ السياسي للعصور الوسطى الاوربية/ المرحلة الأولى–الفصل الدراسي 2018–2019

مدرس المادة: د. ثامر مكي علي

المحاضرة الرابعة/الإمبراطور قسطنطين:

بعد اعتزال الامبراطور دقلديانوس عام 305م حدثت حرب أهلية بين قسطنطين الذي خلف اباه قسطينوس ومكلنتيوس الذي خلف اباه مكسميان والذي كانوا يحكمون وفق النظام الرباعي الذي وضعه دقلديانوس. وحدثت الحرب بعد ان حاول جالريوس التفريق بين قسطنطين وأباه، ولكن المحاولات لم تفلح إذ سرعان ما لحق بابيه، وبعد وفاة أبيه نادت الحامية الرومانية لقسطنطين أو غسطلساً.

استمرت الحرب بين قسطنطين ومكنتيوس حتى عام 312م إذ هزم مكنتيوس في معركة ميلفيان، وتم إعدام أبناءه فيما صدر عفواً عاما عن أعوانه بحجة تهدئة النفوس.

لم تنته الحرب عند هذا الحد بل حدثت هذه المرة مع لسينوس المنافس الوحيد لقسطنطين وقد انتهت عام 324 بهزيمة لسينوس، إذ انفرد بعدها قسطنطين بالسيادة على الإمبراطورية، والغي النظام الرباعي وعين حكاماً يساعدونه في إدارة شؤون الإمبراطورية وقبل وفاته قسم الإمبراطورية بين اولاده لكي يجنب البلاد النزاع الدموي، ولكن الخلافات ما لبثت ان قامت بين اولاده مما نتج الفوضى والاضطراب.

أنجز قسطنطين الاعمال التي بدأ بها دقلديانوس الإدارية والاقتصادية، واقر نظام الوراثة في الحكم حيث جعل هذا المنصب محصوراً في عائلته، حاول إنقاص الفرق العسكرية، استمر في الاعتماد على القبائل الجرمانية في تكوين فرق المرتزقة، وضاعف الضرائب لسد النفقات العسكرية وإقامة المؤسسات العامة، وجعل الحرف وراثية وانزل طبقة الصناع إلى مرتبة العبودية ومنع المزارعين من هجر قراهم والالتجاء إلى المدن.

من اهم الاعمال التي قام بها قسطنطين والتي تركت أثار واضحة اعترافه بالمعيبة وبناء مدينة القسطنطينية.

1- الاعتراف بالمسيحية (مرسوم ميلان 313):

اعترف قسطنطين بالمسيحية كديانة في الدولة الرومانية وفق مرسوم ميلان عام 313 والذي بموجبه أوقف الاضطهاد ضد المسيحيين وارجع إلى الكنيسة أملاكها المصادرة، كما سمح لها بممارسة الطقوس الدينية، وحرم أكراه المسحيين على حضور العبادات الوثنية وأصبح للمسيحية صفة قانونية وكان هذا اكبر نصر ودعم للمسيحيين في العالم فانتشر على نطاق واسع فلم يحل القرن الخامس الميلادي حتى أصبحت جميع الشعوب الرومانية تدين بالمسيحية.

اختلفت الآراء في تحديد الأسباب الحقيقية وراء اعتراف قسطنطين بالمسيحية فالبعض عدها اسباب دينية فيما نسبها البعض لأسباب سياسية. وعلى العموم يقال إن قسطنطين اعترف بالمسيحية بعد ان رأى شارة الصليب التي ظهرت في السماء إثناء حربه مع مكسنتيوس عام 312م فاتخذها شعاراً للوائه في حربه، وبعد تحقيق الانتصار قرر الاعتراف بالمسيحية فضلاً عن الرأي الذي أشار إلى ان قسطنطين اعترف بالمسيحية عن قناعة وإيمان مستندين في ذلك إلى خلقه وتصرفاته تجاه المسيحيين مثل بناء الكنائس.

في الوقت نفسه ظهرت اراء اشارت إلى انه لم يعترف عن قناعة وإيمان مستشهدين بحجج عدة منها انه احتفظ لنفسه بمنصب الكاهن الاعظم وهو اكبر منصب في الديانة الرومانية (الوثنية)، كما إن النقود في زمانه كانت تحمل رسم الصليب على احد اوجهها واله الشمس الروماني على الوجه الاخر، وظل صديقاً للوثنية إلى اخر ايامه حتى سمع انه يبني له معبد خاص يتعبد به وسجل بعد مماته في سجل الهة الرومان.

الواقع ان اعترافه بالديانة المسيحية جاء لأسباب سياسية إذ ان الامبراطور قسطنطين بعد إن رأى انتشار المسيحية وازدياد أنصارها أراد استغلال هذه القوة الجديدة كوسيلة لتوجيه شعوب الإمبراطورية المتباينة في تراثها ومعتقداتها وتاريخها، وأراد ان

يستعين بقوة الكنيسة ومجالها في سبيل تثبيت مركزه واستغلالها كوسيلة للقضاء على الطبقات الثائرة على العلاقات الانتاجية القديمة القائمة على أساس نظام الرق والعبودية.

وفي نهاية الامر نستطيع القول ان قسطنطين كان رجلاً على مستوى عال من الذكاء فلم يكن يستطيع ان انه مسيحي فيغضب الوثنيين ولم يكن يستطيع ان يعلن انه باق على وثنتيه وفي هذه الحالة يتطلب الامر منه ان يتخذ موقفاً من المسيحيين وهذا مالم يحدث ، بل انه عايش الاثنين معاً وانه كان يميل إلى المسيحية شيئاً فشيئاً حتى اصبح في اخر الامر مسيحياً.

2- بناء مدينة القسطنطينية:

ان السبب الرئيسي الذي جعل الاباطرة الرومان يمنحون اهمية كبيرة للاقسام الشرقية من امبراطوريتهم هو بدون العامل الاقتصادي لهذه المناطق بعد ان ازدادت الاضطرابات والحروب الداخلية في الاقسام الغربية وانعكاس هذه الحالة على العامل الاقتصادي فتأخرت الزراعة وقل الانتاج واضطربت التجارة، عكس الاقسام الشرقية من الإمبراطورية ، إذ حافظت هذه المناطق على اهميتها الاقتصادية وهذا جعل الامبراطور دقلديانوس يؤسس مدينة (نيقوميديا) على الشاطئ الشرقي لبحر مرمره اما قسطنطين فقام بخطوة جريئة عندما نقل عاصمة الإمبراطورية إلى مدينته الجديدة التي بناها ف الشرق عام 330م وهي القسطنطينية.

فضلاً عن الأسباب الدينية ومنها ان روما كانت مركز الديانة الوثنية، وفي الشرق يزداد عدد المسيحيين فاراد ان يبتعد عن نفوذ رجال الكمنوث الرومان الذين يتمتعون بنفوذ قوي منذ عهد الامبراطور دقلديانوس والذي ضرب المسيحية.

من الأسباب الأخرى التي دفعت قسطنطين لبنائها أهمية موقعها، فهي تقع على سواحل البسفور والدردنيل ويسيطر على طرق المواصلات البحرية ولابرية وقد اصبحت ملتقى الرطق التجارية التي تربط البحر الاسود ببحر ايجة وشمال حوريا وغربها بآسيا، كما ان هذا الموقع يتمتع باهمية عسكرية وستراتيجية، يضاف إلى ذلك فلربما ان قسطنين فكر بهذه العاصمة الجديدة لكي تكون بعيدة عن هجمات البر ، كما ان شبه

جزيرة البلقان كانت تمد الدولة الرومانية بخيرة الجنود، وان قسطنطين من اصل بلغاري فربما تاثر بذلك واتجه نحو الشرق، أو ربما اراد ان يقلد الاسكندر المقدوني في بناءه مدينة الإسكندرية.

ان نقل العاصمة إلى القسطنطينة قد ادى إلى انقسام الإمبراطورية انقساماً حقيقياً حتى اصبح كل من هذه الاقسام يتميز عن الاخر بوجوه متعددة، كما ضاع الامل في وحدة الدولة كما ساعد على قوة النفوذ البابوي في روما بعد ان اصبح المركز السياسي بعيداً عن روما.